الفصل الأول

تحولات المصطلح في لغة الفنّ الإسلامي

إدهام محمد حنش[1]

مقدمـة:

يُعَدُّ مفهوم (الفن) وموضوعه العام من الإشكاليات الفكرية والمعرفية والمصطلحية التي لا تزال قائمة في الثقافة العربية والإسلامية الحديثة والمعاصرة.[2] ولا بد لهذه الإشكالية من أن تخلِّف بعضاً من آثارها السلبية على مفهوم (الفنّ الإسلامي) وموضوعه الحديث النشأة في هذه الثقافة؛[3] إذ أدت النشأة الاستشراقية لما يمكن أن نطلق عليه (علم الجمال الإسلامي)[4]

(١) دكتوراه في التراث الفكري والعلمي من معهد التاريخ العربي والتراث العلمي/ بغداد، رئيس القسم الأكاديمي لكلية العمارة والفنون الإسلامية جامعة العلوم الإسلامية العالمية/ الأردن. بريد إلكتروني idham_61@yahoo.com.

(٢) مع كثرة الحديث عن (الفن) والكتابة فيه، لم تحسم الثقافة العربية والإسلامية أمرها في تعريفه تعريفاً مصطلحياً جامعاً مانعاً قاطعاً الطريق على أي تباين أو اختلاف في بنائه أو في مفهومه أو في استخدامه. وربما لصعوبة هذا التعريف وتعقيداته المتداخلة بين المعاني اللغوية والمفاهيم التداولية والدلالات الثقافية، ظل لفظ (الفن) بحاجة معرفية معاصرة لتعريفه على نحو علمي واضح ومحدد في ضوء علم المصطلح.

(٣) ربما كان لحداثة الظهور التاريخي لمفهوم (الفنّ الإسلامي) دور ما في رسوخ الاعتقاد لدى كثير من المشتغلين بأعمال هذا الفنّ وتأريخه بأنه، من حيث هو موضوع، يبدو وكأنه، في أحسن أحواله المعرفية، موضوع ثانوي من موضوعات علوم: الحضارة، والتاريخ، والآثار الإسلامية.

(٤) لا يزال الجدل المعرفي حول مفهوم (علم الجمال الإسلامي) وعلميته قائماً بين الدعوات الأولية إلى بناء مفهومه، وبين التأسيسات المعرفية المتواضعة لبنيته العلمية، والرفض الفلسفي القاطع لمفهوم هذا العلم ومقوماته المعرفية. انظر على سبيل المثال:
- الدسوقي، عبد العزيز: نحو علم جمال عربي- تصور وتطبيق، الكويت: **عالم الفكر** (مجلة المجلس الاعلى للثقافة والآداب والفنون)، مج/ ٩، ع / ٢، ١٩٧٨م.
- قلعة جي، عبد الفتاح رواس. **مدخل إلى علم الجمال الإسلامي**، بيروت: دار قتيبة، ١٩٩١.
- توفيق، سعيد. **تهافت مفهوم علم الجمال الإسلامي**، القاهرة: دار قباء، ١٩٩٣.

إلى جعل (الموضوع الفني الإسلامي)[٥] على العموم مرتهناً، إلى حد كبير، بالصنيع الغربي لطبيعة هذا العلم المادية وحدوده المعرفية، فضلاً عن جعل (المصطلح الفني)[٦] المتعلق به من أكثر المجالات الثقافية الإسلامية إشكالياتٍ معرفية على مستويات الرؤية والمنهج والتصنيف والتسمية، بوصفها العصب المعرفي لما يمكن أن نسميه (لغة الفنّ الإسلامي).

نشأت هذه اللغة المعرفية في حضن البحث العلمي الاستشراقي الخاص بدراسة الآثار والعمارة والفنون والصنائع الإسلامية، وارتكزت -منذ بداياتها الأولى في غضون القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي على أقل تقدير- على المفهوم والمصطلح الغربيين لتسمية كل ما رآه المستشرقون يتعلق حضارياً أو ثقافياً أو جغرافياً بالعالم الإسلامي، من العمائر والتحف والمخطوطات وغير ذلك من الآثار المعمارية والأعمال الفنية؛ إذ شكلت هذه الرؤى والمفاهيم والمصطلحات الاستشراقية المادة المعرفية الأولى والتأسيسية؛ على الأقل؛ للغة البحث العلمي في مجالات (الفنّ الإسلامي) المختلفة، وفي ثقافته الجمالية العامة أيضاً.

(٥) نقصد بالموضوع هنا كل ما يمكن أن يخضع للبحث في تاريخ الفنّ الإسلامي وفلسفته من: الآثار والأعمال الفنية المادية، ومن الآراء الفكرية والمعلومات النظرية المتعلقة بتلك الآثار والأعمال الفنية، فضلاً عن الموروث المعرفي التقليدي للحرف والصناعات الإسلامية.

(٦) قد يستخدم هذا التعبير عند بعض المعنيين بدراسة المصطلح ووضعه وصناعته مرادفاً مطلقاً لتعبير (المصطلح العلمي)، ولكننا لا نقصد ذلك، ولا نحبذه في ظل تطور علم المصطلح وتصنيف المصطلحات في الثقافة العربية والإسلامية الحديثة والمعاصرة، لأن المصطلح هو لفظ من الأسماء أو الصفات، يتفق أهل كل اختصاص بوصفه رمزهم اللغوي الدال مباشرة على مفهوم معين عندهم، ومتداول بينهم، وقد يكون شائعاً عنهم لدى غيرهم، بوصفه مصطلحاً خاصاً بأهل هذا الاختصاص وجماعته العاملة عليه. ومن هنا، يمكن أن يعرف المصطلح باسم أهله وصفة جماعته الخاصة، أو المجال المعرفي الذي ينتسب له أكثر من غيره، فقد يطلق (المصطلح العلمي) عاماً على كل مصطلحات العلوم والآداب والفنون والصناعات باعتبارها جميعاً علوماً، وباعتبار المصطلح (مفتاح العلوم)، ولكن الأفضل من وجهة نظر علم المصطلح، تصنيف تلك المصطلحات على العموم إلى (المصطلح العلمي) الخاص بجماعة العلماء، و(المصطلح الأدبي) الخاص بجماعة الأدباء، و(المصطلح الفني) الخاص بجماعة الفنانين ونقاد الفنّ ومؤرخيه، وهكذا. ويمكن القول في السياق نفسه كذلك: مثلما وجد في المعرفة العربية الإسلامية (علم مصطلح الحديث)، يمكن أن يوجد فيها أيضاً علم لألفاظ الفنّ الإسلامي ومصطلحاته باسم (المصطلح الفني الإسلامي).

ولكن الـذي يجب التوقف عنده مما يتعلق بهذه الـرؤى والمفاهيم والمصطلحات الاستشراقية من مظاهر تلك الإشكالية الفكرية؛ هو أنَّها قد جعلت هذا الفنّ يبدو على مستوى الهوية: غير إسلامي الثقافة والمعرفة، وعلى مستوى اللغة: غير عربي اللسان في التعبير والأسلوب.

ومن هنا كانت فكرة هذه المقاربة البحثية وأهميتها الثقافية لدراسة (لغة الفنّ الإسلامي)، ليس من حيث طبيعتها المعرفية الكائنة بين الحقيقة العلمية القائمة على (المصطلح الفني)؛ والمجاز النقدي القائم على القراءة التأويلية للفن بوصفه علامةً ورمزاً، (٧) ولكن دراستها من حيث هي تعبير عن مجموعة الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم المتعلقة بهذا الفن، التي تشكل البؤرة الدلالية لموضوعه الرئيس، فضلاً عن كونها الكلمات المفتاحية للبحث العلمي فيه، وذلك لما لهذه المقومات المفاهيمية من أهمية في بيان حقيقة هذا الفنّ المعرفية، ولما له من دورٍ علمي؛ حيوي وكبير؛ في تقرير هويته الثقافية.

لذلك؛ تسعى هذه المقاربة المتواضعة إلى دراسة الإشكاليات اللغوية والدلالية المتعلقة ببعض هذه الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم الفنية الإسلامية، والتعرف إلى مصادرها الأساسية المتمثلة في بعض لغات الشعوب الإسلامية وثقافاتها المتنوعة بعامة، واللغات الغربية الاستشراقية بخاصة، فضلاً عن دراسة حقيقتها اللغوية العربية الأصيلة في الثقافة الإسلامية.

لذلك فإن البحث يهدف إلى محاولة تأصيل ما يمكن أن نسميه؛ على العموم: (المصطلح الفني الإسلامي)؛ إذ تقوم نظرية العمل المنهجية التأصيلية هذه على الإفادة من روافد معرفية عدة، من أبرزها: الموروث الإسلامي لعلم الجمال وموضوعاته الفنية والنقدية المتميزة من الناحية المعرفية؛ النظرية والتطبيقية، والعناية المبكرة لبعض المجامع اللغوية والمؤسسات العلمية، ولبعض مفكري النهضة العربية والإسلامية الحديثة، بدراسة الإشكاليات المعرفية والتحديات الثقافية المعاصرة، التي واجهتها اللغة العربية بالذات،

---

(٧) عن النظرية الرمزية للفن الإسلامي، انظر:
- معهد الفنون التقليدية: مقالات في الفنون الإسلامية، عمان/ الأردن: جامعة البلقاء التطبيقية ومؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي، (د. ت).

ولا تزال تواجهها في التعامل مع ما أطلق عليه اللغويون العرب المحدثون والمعاصرون: (ألفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون)[٨] المتعلقة بالاكتشافات والاختراعات والوسائل ومظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة من الملبس والمأكل وما شاكل، والمتعلقة بالعلوم الطبيعية والإنسانية والصرفة والتطبيقية، فضلاً عن النظريات والفلسفات والحركات والتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من مظاهر الحضارة الحديثة وظواهرها اللغوية والثقافية والاجتماعية الوافدة بقوة إلى الحياة العربية والإسلامية،[٩] والداخلة إلى بعض مؤسساتها العلمية والأكاديمية والثقافية، منذ بدايات القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي، لتلقي بظلالها الثقيلة على واقع اللغة العربية التي كانت "فقيرة في كتب الفنون الإسلامية، وفقيرة كذلك في مصطلحاتها الفنية؛ إذ إن أكثر الذين كتبوا فيها لم يوفوا هذه المصطلحات حقها من العناية والتحقيق، وكثيراً ما تهرَّب الكتّاب من ترجمة بعض المصطلحات الفنية الدقيقة، أو خلطوا بين ترجمة منها، كالنحت والحفر، والدهان والطلاء، والرسم والتصوير، والتكفيت والتطعيم."[١٠]

وربما كانت الخصوصية اللغوية والمعرفية التي يتمتع بها (المصطلح الفني الإسلامي) بين هذه الألفاظ الحضارية والمصطلحات الفنية الحديثة، سبباً في قلة أدبيات هذا الموضوع المباشرة، وفي شحّ دراساته السابقة، التي غالباً ما تجيء عرضاً في سياقين رئيسين، وربما متداخلين أحياناً؛ هما: البحث العلمي الاستشراقي المتعلق بتاريخ الفنّ الإسلامي وتحولاته المعرفية، أو البحث اللغوي العربي المتعلق بالألفاظ والمصطلحات والمفاهيم التي اخترعتها أو أطلقتها الدراسات الاستشراقية المتعلقة بتاريخ الفنّ الإسلامي.

(٨) مطلوب، أحمد. **معجم ألفاظ الحضارة**، دمشق: مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد (٧٨)، الجزء (٣)، ٢٠٠٣.

(٩) يعد الأديب محمود تيمور (ت ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م)؛ عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة؛ رائد العمل العلمي العربي؛ وربما الإسلامي الحديث، لصناعة أول معجم لألفاظ الحضارة ومصطلحاتها. انظر:

- تيمور، محمود. **معجم الحضارة**، ط ١، القاهرة: المطبعة النموذجية، ١٩٦١.

(١٠) ديماند، م. س. **الفنون الإسلامية**، ترجمة أحمد محمد عيسى، القاهرة: دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ط ٤، ص ٢.

وأخيراً، تنطلق هذه المقاربة لتناول هذا الموضوع من نظرية اللغة المعرفية، القائمة على العلاقة العضوية الحميمة بين اللغة العربية والفنّ الإسلامي. وتستند هذه العلاقة بصورة أولية إلى عدد من الحقائق، منها:

– اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، والدين الحنيف، والمعرفة الكلية، والثقافة الأساسية، والقيم العامة في العالم الإسلامي؛ إذ تدخل هذه اللغة في لغات أغلب الشعوب الإسلامية وثقافاتها الخاصة. ويقدر عدد لغات هذه الشعوب التي استعارت أنظمتها الكتابية الخط العربي بأكثر من مائة وتسعة وعشرين لغة.(١١)

– اللغة العربية ذات تأثير كبير في الفنّ الإسلامي، يتمثل في تنظيم المتغيرات الإيقاعية لهندسة الشكل في الفنّ الإسلامي، وفي تقويم الإتقان الفاضل لكل عنصر من عناصر هذا الفنّ الزخرفية؛ النباتية والهندسية، فضلاً عن صور الخط العربي، الحاملة لكلمات القرآن الكريم وحقيقتها الإلهية المتعالية بفكرة التوحيد، المجردة عن الشكل، الذي يجعل الفنّ الإسلامي رمزاً لغوياً معرفياً ظاهراً لتجليات الوحدة الإلهية.(١٢)

– اللغة العربية هي لغة الفنّ الإسلامي الأولى، والأم الجامعة لكل الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم المتعلقة بموضوعاته الفلسفية والجمالية والإبداعية وغيرها.

أولاً: صيرورة المصطلح الفني الإسلامي:

أدى عصر النهضة الأوروبية وحركته العلمية في التعرف إلى ثقافة الإنسان وحضارة المجتمع حول العالم إلى انبثاق التفكير المنهجي في الموضوعات الفلسفية المتعلقة بالأحاسيس والمدركات الإنسانية لكل ما يتعلق بالصور المسموعة والمبصورة والمتخيلة، ولكل ما يصدر عنها من أشكال التعبير

---

(١١) بنبين، أحمد شوقي: ما المخطوط؟ **دعوة الحق** (مجلة شهرية. وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية)، الرباط، العدد ٣٣٧، السنة ٤٥، ماي / يونيو ٢٠٠٤، ص ٣٣.

(١٢) بيركهارت، تيتوس. تأثير اللغة العربية على الفنون البصرية في الإسلام، في كتاب: **مقالات في الفنون الإسلامية**، مرجع سابق، ص ١١١ ـ ١١٢.

ومضامينه الإبداعية.. إلى صيرورة (الجمال) موضوعاً أثيراً لمجال جديد في المعرفة الانسانية، هو أقرب ما يكون اتصالاً بالدين، وانتماءً إلى الفلسفة، وتمثلاً لصورة العلم المنهجية التي ربما شكلت، من حيث التصنيف المعرفي على الأقل، مفهوم (الفن) المتميز نوعاً ما عن مفهوم كل من العلم نفسه، والأدب إلى حد ما.. وذلك في المجال المعرفي الذي بدأ يتشكل منذ منتصف القرن السابع عشر الميلادي باسم (علم الجمال) أو (فلسفة الفن).

وبدفع من فكر النهضة الأوروبية المادي هذا، القائم على العلم والتكنولوجيا ورأس المال في الإنتاج الصناعي والإبداع الثقافي والاكتشاف الحضاري حول العالم الجغرافي والطبيعي والإنساني.. صار هذا المجال المعرفي الجديد مظهراً من مظاهر التطور التاريخي لثقافة الإنسان وهويته، وشكلاً من أشكال رقيه الحضاري، وسمة بارزة من سمات حركة الحداثة الثقافية والحضارية والمعرفية الإنسانية، وركيزة حيوية من ركائزها الأساسية التي تعكس درجات الوعي الفكري المتعلق بالوجود والكون والرؤية الإنسانية إلى التاريخ والحياة والمصير.

ولكن هذا الفكر الغربي شكَّل بالنسبة لأغلب شعوب الأرض، ومنها شعوب الشرق بخاصة، أقوى التحديات الحضارية والثقافية من القادم الأوروبي، المحتل عسكرياً لأراضيها، والمستعمر سياسياً لإرادتها، والناهب اقتصادياً لثرواتها، والقاهر إنسانياً لهويتها الفكرية وتقاليدها الاجتماعية التي باتت أكثر عرضة للتحديات الغربية من أي شيء آخر. وربما كانت هذه التحديات أكبر من طاقة الشعوب على تحملها ومواجهتها والتعامل الإيجابي معها، فأثرت الوافدات الحضارية الأوروبية، من الصناعات والعلوم والآداب والفنون والتقاليد الغربية، في البنى الاجتماعية لأغلب هذه الشعوب الشرقية، بعامة، فضلاً عن تأثيراتها الكبيرة في الثقافة العربية والإسلامية الحديثة والمعاصرة بخاصة.

وكان من الملامح الأولى والمهمة لهذا التأثير الحضاري والثقافي والعلمي الأوروبي في الوعي الإسلامي بعامة، والوعي العربي منه بخاصة: تحولات المفهوم الإسلامي العربي لكل من مصطلحَي (الحضارة) و(الثقافة) من جهة،

ولمصطلح الفنّ من جهة أخرى، متعلقة معرفياً بالجهة الأولى، فقد تحول المعنى في لفظة الحضارة مثلاً، من مجرد المكوث والتوطن والاستقرار وغير ذلك من مظاهر الحضور الأخرى، إلى المكان والتحضر فيه، التي اعتدنا على توكيد معانيها في معاجم اللغة العربية، إلى مفهوم أوسع من حيث المعنى والدلالة السياقية المرتبطة بأسلوب حياة عام في أبعاده الشخصية والاجتماعية والسلوكية والفكرية والاقتصادية والسياسية والعمرانية وغيرها، من كل ما يدل على حداثة الإنسان الفكرية، ورقيه الاجتماعي، ورفاهيته المعيشية. وقد جاء هذا المفهوم الجديد إلى المعرفة العربية والإسلامية الحديثة والمعاصرة من ترجمة مصطلحَي (Civilization) و(Culture) إلى اللغة العربية،[١٣] وما يتعلق بهما دلالياً من الاختراعات والصناعات والتقاليد والعلاقات والحركات والتنظيمات والتقنيات والأساليب والوسائل والأفكار والنظريات والتعبيرات، وكل مظاهر الإبداع الانساني المادية والمعنوية.

وقد اقترن بهذا التحول الواضح في المعرفة العربية والإسلامية الحديثة والمعاصرة تحولٌ معرفي للفظة الفن، من معانيها اللغوية القديمة المتمثلة في: الحال العام والمطلق، وفي الجنس والنوع والضرب[١٤] الخاص والمحدد من الأشياء والصناعات والمجالات الفكرية والعلمية والأدبية وغير ذلك من مظاهر الإبداع الإنساني بلا استثناء، إلى محاولات البناء العلمي الجديد لمفهوم الفنّ مصطلحاً معرفياً محدَّد الدلالة على المجال الجمالي، من خلال ترجمة مصطلح (Art) الأجنبية إلى مفردة الفنّ العربية.[١٥]

وربما كان مصطلح الفنّ ومفهومه اللغوي والثقافي الخاص المختلف عن مفاهيم العلم والأدب والصِّناعة من أكبر التحديات الحضارية والثقافية والعلمية التي واجهها الوعي العربي الإسلامي في القرن الثالث عشر الهجري /

---

(١٣) عارف، نصر محمد: **الحضارة – الثقافة – المدنية؛ دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم**، أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٤، ط ١، ص ٤٥.

(١٤) ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ١٩٥٦، ٦/ ٥ – ٣٤٧٦.

(١٥) حنش، ادهام محمد. **الخط العربي وإشكالية المصطلح الفني**، حلب: دار النهج، ٢٠٠٧، ط ١، ص ٢٧.

التاسع عشر الميلادي: قرن التفاعلات الكبرى بين العالم الإسلامي والغرب الأوروبي، وهو قرن التحولات العميقة للثقافة الإسلامية نحو الثقافة الغربية؛ إذ جرت أعمق التحولات الفكرية واللغوية والمفهومية في بنية الثقافة الإسلامية الحديثة والمعاصرة حول عدد من المستجدات الناشئة في المجتمعات الإسلامية، ومنها: المجتمعات العربية، بسبب بعض العوامل الناعمة المتمثلة كالعلم والتعليم، والمثاقفة والترجمة التي كان لها الدور الفاعل في بلورة وعي إسلامي حديث، وفي بناء مفهوم عربي جديد لمعنى الفنّ وقيمته المعرفية، المتمثلة في الجمال والإبداع والتذوق، وغير ذلك مما له علاقة بإحساسات النفس وشعورها الإنساني.

وربما كان الأديب المصري رفاعة رافع الطهطاوي (ت ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م) أول من نقل من الثقافة الفرنسية إلى الثقافة العربية الإسلامية فكرة "إن الإفرنج قسموا المعارف البشرية إلى قسمين: علوم وفنون، فالعلم هو الإدراكات المتحققة بطريقة البراهين، وأما الفنّ فهو معرفة صناعة الشيء على حساب قواعد مخصوصة."(١٦)

ولكن الطهطاوي مع زملائه المشتغلين بالترجمة في (مدرسة الألسن التي تأسست عام ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٩م) التي كان يرأسها،لم يعدموا الصلة المعرفية بين (العلم) و(الفن)، ومن ثم لم يقيموا قطيعة لغوية أو دلالية بين الإثنين على أساس المفهوم أو التعريف أو الاصطلاح الخاص لكل منهما، فقد ظلت عند هؤلاء الألسنيين المترجمين، إمكانية دلالة (الفن) على (العلم)، ودلالة (العلم) على (الفن)، إلى حد ما، ويمكن أن نلاحظ ذلك، على سبيل المثال لا الحصر، في الكتاب الذي ترجمه فريق من العاملين في هذه المدرسة، تحت إشراف الطهطاوي نفسه من اللغة "الفرنساوية إلى العربية" بعنوان: (كشف رموز السر المصون في تطبيق الهندسة على الفنون).

وكان هذا الكتاب "كتاباً في تطبيق الهندسة والميكانيكة على الحرف والصنائع والفنون المستظرفة" كفن المعمار وعلم المباني، وعلمي الجغرافية

(١٦) الطهطاوي، رفاعة رافع. **تخليص الأبريز في تلخيص باريز**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ٢/ ٢٦٦.

والهيئة، وصناعة أو عمارة السفن، وعلم النور والضوء والظلال والكسوف، وفن النجارة والنحت والطبع والتبغرافيا، لا سيما وإن "مدرسة الألسن [هذه] حائزة من كل فن أحسنه"؛ كما تقول مقدمة الكتاب.

وفي هذا السياق انفتح باب التطورات المفهومية والمصطلحية المتعلقة بوعي الجمال والفنّ الحاصلة نسبياً في الثقافة العربية والإسلامية التي صارت تتداول، بشكل شبه اصطلاحي، تركيبات اسمية وتعبيرات لغوية محددة المعنى والدلالة، مثل:(١٧) (الفنون النفيسة)، و(الفنون الراقية)، و(الفنون الفتانة)، وآخرها (الفنون الجميلة) الذي ربما كان الأديب أحمد فارس الشدياق (ت ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م) أول من أطلقه.

وكانت التحولات الفكرية والثقافية العربية والإسلامية، النظرية والعملية، نحو المفاهيم الحضارية الجديدة التي بدأت تنتشر -بصورة متفاوتة- بين شرق العالم العربي وغربه، ظاهرة اجتماعية شبه عامة، تصدت النخب الدينية والعلمية والثقافية لمواجهتها معرفياً من خلال: التأصيل الشرعي، والتوطين الحضاري، فضلاً عن التكييف اللغوي لأغلب الوافدات الحضارية الجديدة من الأشياء والتقنيات والأساليب والمفاهيم الغربية الحديثة على المجتمعات العربية والإسلامية:

فمن جهة التأصيل الشرعي، واجه (فقه النوازل)، على سبيل المثال لا الحصر، بعض هذه الوافدات الحضارية الجديدة التي كان منها على سبيل المثال لا الحصر: (الفن) تعبيراً عن الرسم والتصوير والغناء والتمثيل المسرحي، وغير ذلك من المظاهر الإبداعية الناشئة في المجتمع. وقد حاول هذا الفقه تبديد حيرة الناس في التعامل الشرعي مع هذه الأشياء الوافدة بجدل متباين بين الحرام والحلال. وربما كانت مسألة (التصوير الفوتوغرافي) من أبرز هذه الوافدات الحضارية الغربية إلى المجتمع العربي والإسلامي؛ التي

(١٧) داغر، شربل. قواميس الفنّ ومقارباته، **مجلة الصورة**، الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ع / ١، ٢٠٠٤، ص٨٣.

حظيت بفتوى الإباحة والقبول.[18] وقد ساهم هذا الفقه المقاصدي من خلال فتاواه الشرعية في التوطين الاجتماعي لما كان يطلق عليه (الفنون الجميلة) التي ربما كان الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٥م) أول من دعا إلى قبولها وإشاعتها في المجتمع،[19] وفي التوطين اللغوي لكثير من ألفاظ تلك الوافدات الحضارية الجديدة ومفاهيمها كالتلفون والتلغراف والفوتوغراف والطاموبيل والفونوغراف والراديو والإصطنبا والسبتاكل والبنك والأوبرا وغيرها في الثقافة الإسلامية.[20]

وساهم المتعلمون والمثقفون والكتاب في توطين بعض هذه الوافدات الغربية من الصناعات والآداب والتقاليد والملابس، وغير ذلك من الآلات والمواد والمظاهر في المجتمعات العربية والإسلامية، بوصف هذه الوافدات معايير ودلائل على رقي هذه المجتمعات وتطورها الحضاري، وذلك من خلال وسائل تحديث التعليم المتاحة، ومن خلال الحوارات والنقاشات والسجالات الدائرة في الصالونات الخاصة والمقاهي، ومن خلال تأليف الكتب ونشر المقالات في الصحف والمجلات ووسائل الاعلام الأخرى.. فقد تمت من خلال ذلك كله على الأقل، مقاربات لغوية وأسلوبية واصطلاحية غير مباشرة لهذه الوافدات في لغة المجتمع العامة، فضلاً عن لغتنا العربية الفصحى. ولعل من أبرز ما أنجزه المثقفون العرب الرواد على صعيد مسائل الفنّ ومصطلحاته هو تحديد الطبيعة المعرفية للفن بين الحضارة والثقافة، فذهب سلامة موسى (ت ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م)، الذي كان أول من أفشى لفظ الثقافة في مقابل اللفظ الأجنبي، إلى ربط الفنّ بالثقافة أكثر من ربطه بالحضارة، باعتبار أن الحضارة مادية وأما الثقافة فذهنية.[21] وكان للأديب توفيق الحكيم (ت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)

(١٨) المطيعي، محمد بخيت. **الجواب الشافي في إباحة التصوير الفوتغرافي**، القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٢هـ. والمؤلف (ت ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م) هو مفتي الديار المصرية للأعوام ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م - ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م.

(١٩) عبد الرازق، الشيخ مصطفى. **الشيخ محمد عبده والفنون الجميلة**، القاهرة: مجلة الفنون، ٢٠/ ٩/ ١٩٢٤.

(٢٠) السعيدي، أحمد. الفقيه والصورة - قراءة في (القول المحرر في اتخاذ الصور) لمحمد بن عبد الكبير الكتاني (ت ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٩م)، في: **ثقافة الصورة**، عمان/ الأردن: جامعة فيلادلفيا، ٢٠٠٧.

(٢١) عارف: المرجع السابق ن ص ٢٧.

مثلاً دور مماثل لهذا الدور، لكن في تحديد الطبيعة المعرفية لفن المسرح من حيث وضع مصطلحه الجديد في اللغة العربية، ومن حيث ترسيخه في الثقافة العربية الحديثة.[٢٢]

أما المقاربات اللغوية والأسلوبية والاصطلاحية المباشرة لهذا الموضوع فتمت من خلال جهود علماء اللغة ومجامعها العلمية الرسمية، التي حاولت تكييف كثير من تلك الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم الحضارية الغربية الحديثة للسان العربي، على الأقل، كما حاولت تبكير العمل الاصطلاحي في التصدي لهذه الظاهرة ودراستها في إطار الثقافة اللغوية العربية، التي عالجت كل ما يتعلق بتلك الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم الحضارية والفنية من التحولات اللسانية بين الوضع والتعريب والترجمة والتصنيف والمعجمة.

ولعل المحاولات المبكرة لمثل هذه الدراسات اللغوية في الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم المتعلقة بالفنّ الإسلامي، كانت قد بدأت من عند الأديب العلامة أحمد تيمور باشا (ت ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م) الذي يمكن عدّه أول الباحثين العرب المحدثين الذين حاولوا دراسة ألفاظ الحضارة وتاريخ الفنّ الإسلامي، فقد كتب أحمد تيمور أكثر من كتاب في هذا الموضوع، من أبرزها: كتابه الرائد (التصوير عند العرب)[٢٣] الذي يعد رائداً في مجاله، وذا قيمة علمية كبيرة من حيث احتواؤه على العديد من الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم العربية المتعلقة بفنّ التصوير الإسلامي مثل: التذهيب، والتزميك، والتكفيت، وخيال الظل، وطيف الخيال، وغير ذلك من مثل هذه الألفاظ والمصطلحات الفنية الإسلامية الخالصة.

لكن الجهود العلمية الأولى التي مهدت لتأسيس معجم مصطلحات الفنّ الإسلامي؛ تعود إلى الباحث اللغوي والأديب بشر فارس (ت ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م) الذي كان أول الباحثين اللغويين العرب المحدثين وأكثرهم عناية بدراسة المصطلحات الفنية الإسلامية، وأكثرهم انشغالاً بتأصيلها اللغوي الهادف إلى بناء لغة الفنّ الإسلامي على ألفاظها التاريخية العريقة في الاختصاص،

---

(٢٢) الحكيم، توفيق: **قالبنا المسرحي**، القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٩٦٧م، ط ١.

(٢٣) نشر عام ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢ م؛ بتحقيق ودراسة وتعليق: الدكتور زكي محمد حسن.

وذلك من خلال تقديمه عدداً من الإسهامات اللغوية التي يمكن عدها لبنات أولى وتأسيسية لما يمكن أن نسميه: (علم المصطلح الفني الإسلامي).

ولعل من أهم الأعمال التي قدمها بشر فارس في هذا المجال، على سبيل المثال لا الحصر:

(أ) بحث مختصر نشره في مجلة مجمع اللغة العربية الملكي؛ في مصر عام ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م؛ بعنوان: (في اصطلاحات الموسيقا والفلسفة).

(ب) كتابه الموسوم بـ: (اصطلاحات عربية لفنّ التصوير).[٢٤]

(ج) مسرد عربي - فرنسي بأكثر من ثمانين مصطلحاً في فنّ التصوير، وضعه في خاتمة كتابه عن (سر الزخرفة الإسلامية).[٢٥]

(د) (الفنّ القدسي في التصوير الإسلامي الأول).[٢٦]

وعلى الرغم من أن كل تلك الجهود العلمية المصطلحية الرائدة كانت تبذل وتقر وتنشر في إطار (مجمع اللغة العربية في القاهرة)،[٢٧] لم ترق تحركات هذا المجمع اللغوي نحو الاهتمام العلمي بموضوع (لغة الفنّ الإسلامي) إلى مستوى ما بذله هؤلاء العلماء وغيرهم من جهد في معالجة المصطلح الفني الإسلامي، فضلاً عن كون معالجات هذا المجمع ومقرراته اللغوية والاصطلاحية المتعلقة بمفهوم كل من (الفنّ الإسلامي) و(العمارة الإسلامية) وحدودهما المعرفية، لم تكن جادة وواثقة في النظر اللغوي والمعرفي في ألفاظهما الاصطلاحية. فعلى الرغم من إمكان اعتبار (معجم ألفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون)[٢٨] هو المعجم العربي الأول من الناحيتين العلمية المحكمة، والاعتماد الرسمي الأوسع في ما يتضمنه من مصطلحاتٍ في كل من: (فنّ التصوير)، و(مذاهب الفنّ الحديث)، و(فنّ النحت)، و(فنّ

(٢٤) منشورات المجمع العلمي المصري، القاهرة، ١٩٤٨.

(٢٥) منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٥٢.

(٢٦) القاهرة، ١٩٥٥.

(٢٧) أنشئ في مصر عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢ م؛ أول مجمع لغوي في العالم العربي باسم (المجمع اللغوي للوضع والتعريب (الذي كان قد تحول فيما بعد إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

(٢٨) مجمع اللغة العربية: **معجم الفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون**، القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٨٠م.

المرسومات)، و(فنّ الخزف).. فضلاً عن قرارات مجمع اللغة العربية في القاهرة عن (مصطلحات في العمارة الإسلامية) المنشورة في سياق الألفاظ والمفاهيم المتعلقة بالحضارات القديمة كالإغريقية واليونانية (٢٩) مثلاً.. على الرغم من ذلك فإن (الفنّ الإسلامي) لا يزال محكوماً في لغته المعرفية بكثير من المفاهيم والمصطلحات الأجنبية والغربية والمعربة الوافدة على ثقافة هذا الفنّ العلمية والتاريخية، وهذا يدل على أن هذا المجمع ، ومؤسسات علمية أخرى، وكثيراً من اللغويين والباحثين العرب المحدثين والمعاصرين لم يلتفتوا كثيراً إلى دراسة لغة الفنّ الإسلامي دراسة علمية ولغوية واسعة وعميقة، يمكن أن تحررها من بعض مظاهر التغريب الاستشراقية، وتبعث فيها حقائق التعريب اللغوية على الأقل.

ثانياً: ترجمة المصطلح الفني الإسلامي

كانت محاولات التأصيل اللغوي والمعرفي لهذه الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم متواضعة جداً، وخجولة في تعاطيها مع المعجم العربي اللغوي والاصطلاحي للفن الإسلامي، فدار أغلب محاولاتها التعريبية في إطار التغريب الثقافي بوصفه عنوان الحداثة والمعاصرة، فضلاً عن الحضارة التي انصبت عناية اللغويين والمثقفين العرب المحدثين على ألفاظها ومصطلحاتها ومفاهيمها العربية الإسلامية والأجنبية الغربية على حد سواء، مما صار يتداول في أوساط العلماء اللغويين وغيرهم من الباحثين في الآثار والفنون والعمارة والصنائع الإسلامية، بوصفها مجالاً معرفياً وليداً، وتخصصاً أكاديمياً جديداً، وتحدياً ثقافياً ولغوياً من تحديات الحضارة الغربية الحديثة التي حركت البيئة الثقافية العربية والإسلامية نحو التفكير العلمي في تأصيل المصطلح الفني الإسلامي ومعجمته المنهجية.

وإذا كان منهج بشر فارس في التعاطي مع مصطلحات الفنّ الإسلامي الأجنبية تأصيلياً يتمثل على العموم في الرجوع إلى التراث اللغوي العربي؛ المعجمي والأدبي، فإن التحديات اللغوية والإشكاليات الثقافية الكبيرة التي واجهتها هذه

(٢٩) الصادرة في عام ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م.

المصطلحات تتمثل على العموم في الترجمة التي عكست جانباً آخر من تلك التحديات اللغوية؛ التعبيرية والتوصيلية، التي لا تزال ظلالها الثقيلة ملقاة على مسارات البحث والتأليف والتعليم والثقافة المتعلقة بألفاظ الفنّ ومصطلحاته الواردة في الدراسات الأجنبية للآثار والعمارة والفنون الإسلامية؛ إذ نجد أغلب هذه الدراسات تصنف (الفنّ الإسلامي) إلى فرعين كبيرين هما:

(أ) الفنون الكبيرة أو الرئيسة؛ كالعمارة وما يتعلق بها من النحت والفسيفساء والتصوير الجداري والنقوش الزخرفية الخشبية والجصية وغيرها.

(ب) "الفنون الصغرى أو ما قد يطلق عليه: الفنون التطبيقية أو الآثار المنقولة،"(٣٠) وهي "تضم صناعات التحف المعدنية والخشبية والخزفية والزجاجية وتزويق المصاحف والمخطوطات وزخرفتها والفسيفساء والكتابات الأثرية."(٣١) ولكن المصطلح الأول والأشهر لهذه الفنون هو (الفنون الفرعية الإسلامية) الذي ربما كان الدكتور زكي محمد حسن أول من ترجمه إلى اللغة العربية، فهو يقول في ذلك: "الفنون الفرعية هي الترجمة التي استخدمناها حتى الآن للمصطلحات الأوروبية Minor Arts بالإنكليزية، و Arts Mineure بالفرنسية، و Kleinkunst بالألمانية. وقد يمكن أن نسميها: الفنون الصناعية أو الفنون التطبيقية، كما تعرف أحياناً باسم الفنون الزخرفية. والمقصود بها على كل حال هو الفنّ في الأشياء المنقولة التي ينتفع بها أو تتخذ للزينة والزخرف. ولكن الواقع أنَّ هذا التقسيم غامض إلى حد كبير، فبعض مؤرخي الفنون يدخلون السجاد مثلاً في الفنون الفرعية، وبعضهم الآخر يخرجونه عنها."(٣٢)

---

(٣٠) الريحاوي، عبد القادر. تقييم البحوث الأجنبية في الآثار الإسلامية، في: **الآثار الإسلامية في الوطن العربي**، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٥، ط ١، ص ٨٧.

(٣١) النتشة، يوسف سعيد. الفنون الزخرفية والمعمارية لفلسطين الإسلامية، في: **الحج، العلم، الصوفية: الفنّ الإسلامي في الضفة الغربية وغزة (متحف بلا حدود)**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤، ص ٥٩.

(٣٢) نص تعليق الدكتور زكي محمد حسن على موضوع (الفنون الإسلامية الفرعية وتأثيرها في الفنون الأوربية). انظر:
- بريجز، كريستي أرنولد: **تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة**، ترجمة: زكي محمد حسن، سورية: دار الكتاب العربي، ١٩٨٤، ط ١، ص ٩، هـ١.

وفي هذا السياق، لا بد من الإشادة بدراسات الترجمة التي قام بها الباحث الآثاري "أحمد محمد عيسى" لبعض مصطلحات الفنّ الإسلامي في أحد أوائل الكتب التاريخية الغربية وأكثرها علمية عن هذا الفن، وهو الكتاب الذي ألفه باللغة الإنكليزية، أمين المجموعات الفنية الإسلامية في متحف المتروبوليتان في نيويورك لمدة أكثر من ثلاثين عاماً؛ الدكتور (م. س. ديماند)؛ بعنوان: A Handbook of Muhammadan Art. فالقيمة العلمية الكبرى لهذه الترجمة تكمن في تجاوز التحديات اللغوية التي واجهها في نقل مصطلحات الفنّ الإسلامي من الإنكليزية إلى العربية.

وكان منهج هذا الباحث المترجم في عمله العلمي هذا: اختيار الألفاظ العربية الأقرب؛ معنى وشيوعاً، إلى تلك المصطلحات الإنكليزية، حتى لو كانت هذه الألفاظ العربية ألفاظاً عامية "مما يجري على ألسنة أهل الصنعة، رغبةً في تحديد معاني الكلمات العربية من ناحية الفنّ أو الصِّناعة، وحتى لا يكون لكلمة واحدة بالإنكليزية أكثر من مقابل واحد بالعربية."(٣٣)

وقد استخرج هذا الباحث المترجم أول قاموس صغير لما اعتقد أنها مصطلحات فنية، ووضع لها مقابلاً عربياً، وألحقها بترجمته لكتاب ديماند هذا، بهدف الوصول مستقبلاً إلى "تقرير معجم ثابت صحيح لمصطلحات الفنون الإسلامية." وبعد ما يقارب من أربعة عقود، طور الباحث المترجم قاموسه الصغير؛ إذ زاد عليه ألفاظاً فنية أخرى استخرجها من ترجمته لكتاب آخر هو (فنون الترك وعمائرهم، للدكتور أوقطاي أصلان آبا)(٣٤) حتى اجتمع له أكثر من (١٤٠٠) مصطلح في شتى مجالات العمارة والفنون والصنائع الإسلامية، فأصدرها في أول معجم خاص ورائد في اختصاصه، بعنوان (مصطلحات الفنّ الإسلامي).(٣٥)

---

(٣٣) المرجع نفسه، ص ١٣.

(٣٤) إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ١٩٨٧.

(٣٥) إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ١٩٩٤.

ثالثاً: مصطلحات (الفنّ الإسلامي): مراجعة نقدية

ظهر مصطلح (الفنّ الإسلامي) على نحو واضح ومتسع من النضج والاستواء المعرفيين موضوعاً من موضوعات الثقافة الاستشراقية - الإسلامية في غضون القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين / التاسع عشر والعشرين الميلاديين؛ إذ أصبحت عبارة (الفنّ الإسلامي) مصطلحاً دالاً إلى حد ما، على الآثار antiquities المعمارية العيانية والأعمال الفنية المتمثلة في المخطوطات والمصنوعات والتحف وما شابه ذلك مما كان يخضع للتصنيف الثقافي لعلم المتاحف.(٣٦)

وربما كانت حاجة المتاحف الغربية الكبرى إلى التعريف بتلك الأعمال والآثار الفنية الإسلامية وتسويقها الثقافي قد أدت إلى تحول دلالي كبير في هذا المصطلح من كونه يشير إلى مجموعة collection من مجموعات هذه المتاحف الضخمة من تلك الآثار والأعمال الفنية الإسلامية، إلى صيرورته مصطلحاً آخر في دلالته على مجال معرفي يمكن تمييزه بسهولة في ضوء التصنيف المعرفي الحديث لمجالات الثقافة الإنسانية المختلفة نسبياً في ما بين العلم، والأدب، والفنّ الذي صارت هذه المجتمعات الإسلامية تقبله -بسبب هذا التثاقف- مفهوماً أكثر تعلقاً بالجمال والإبداع من أي شيء آخر، كما صارت هذه المجتمعات تقبل (الفنّ الإسلامي) موضوعاً subject أساسياً من موضوعات ثقافتها الحديثة والمعاصرة.

ومن هنا، يمكن القول إن تسمية (الفنّ الإسلامي) هذه تعد أول الإشكاليات اللغوية والمعرفية وأبرزها في البحث العلمي المتعلق بالفنّ الإسلامي؛ إذ لم تستقر تسمية هذا الفنّ العامة على حال معرفي واحد حتى اليوم، على الرغم من شيوعها المعاصر. وتعود جذور هذه الإشكالية إلى بحر القرن الثالث عشر

(٣٦) Museology: تشكل هذا العلم معرفياً منذ العام ١١٣٩هـ/ ١٧٢٧م، ليعنى بالوظائف الجمالية والعلمية والتجارية للمجموعات الفنية بوصفها مجالاً من مجالات التاريخ الثقافي والحضاري الإنساني.

الهجري / التاسع عشر الميلادي؛ إذ يمكن أن نتعقب من هنا المسار التاريخي والاصطلاحي لتسمية (الفنّ الإسلامي) على النحو الآتي:[٣٧]

(أ) في بحر الأعوام ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٣م - ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٨م؛ صدر للباحثين: جول برجوان Jules Burgoin، وبريس دو آفن Prisse D' Avennes كتابان باللغة الفرنسية كلاً على انفراد، بعنوان (الفنّ العربي L' Arabe Art). ويبدو بأن هذه التسمية كانت رائدة في تغطية الأعمال والآثار والتحف الفنية الإسلامية التي بدأت تنتشر آنذاك في أوروبا، وتحظى بعناية الدارسين والكتاب والمؤرخين الذين تباينوا في رؤيتهم لهذا الفنّ وفي تسميته بين عناوين جديدة لكتبهم التي بدأت تظهر تباعاً:

(ب) (الفنّ الساراسيني Sarascenic Art)؛ الذي اخترعه المؤرخ لاين بول Lane Pooles في كتابه الصادر عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م؛ بعنوان: (Handbook of Sarascenic Art). ولا بد من أن نذكر هنا بأن هذه التسمية كانت خاصة واستثنائية في تاريخ البحث العلمي المتعلق بالفنّ الإسلامي، ولذلك لا قيمة معرفية لها في هذا السياق.

(ج) (الفنّ المحمدي Mohammadan Art)؛ الذي كان أكثر شيوعاً من غيره منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، وصدرت تحت عنوانه بعض كتب الفنّ الإسلامي التي كان منها، على سبيل المثال لا الحصر: (العمارة المحمدية في مصر وفلسطين) الذي نشره مارتن بريكس Martin S. Briggs في عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م.

(د) (الفنّ المسلم): الذي جاء لأول مرة في كتاب المستشرق والفنان الفرنسي المعروف باسم صلاح الدين M. Saldin إذ كان هذا الكتاب قد صدر بعنوان: (Manuel de l' Art Musulman) في عام ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٧م.

وكان لهذا الاستعمال الأخير أهميته الدلالية في تسمية هذا الفن، ودوره

---

(٣٧) انظر: الريحاوي: المرجع السابق، ص ٨٩.

العلمي في التمهيد التدريجي لتحوله الواضح والمباشر إلى تسمية جامعة لكل من الفنّ والإسلام [٣٨] في مركّب اصطلاحي بصيغة (الفنّ الإسلامي).

(هـ) (الفنّ الإسلامي) الذي ظهر لأول مرة بوضوح في حدود السنوات الأولى من القرن الرابع الهجري / العشرين الميلادي؛ وتحديداً في عام ١٣٢٧هـ/ ١٩١٠م، حيث أقيم أكثر من معرض للأعمال والآثار والتحف والصنائع الفنية الإسلامية، في أوروبا تحت عنوان (الفنّ الإسلامي). [٣٩]

ويمكن القول إنَّ هذا المصطلح المركب من الفنّ والإسلام، بغض النظر عن معنى كلٍ منهما على وجه الدقة والقصد، قد أصبح عنواناً معرفياً عاماً أو اسم جنس مَعرفياً لكل ما يدخل في إطار الصِّناعة الإبداعية الفنية والجمالية الإسلامية، وصار لذلك هو المصطلح الأكثر استقراراً في ما يطلق على أجناس هذه الصِّناعة وأنواعها المتعينة على نحو رئيس في إطار الثقافة البصرية الإسلامية التي ظلت تعاني من استيراد المصطلحات، وغربة المفاهيم، واضطراب الدلالات، وغير ذلك من المظاهر اللغوية والمعرفية لإشكالية التسمية العلمية الأساسية في موضوعات الفنّ الإسلامي المختلفة. ويمكن أن نشير هنا بعامّة؛ إلى بعض هذه المظاهر الإشكالية من خلال المسائل الآتية:

(أ) غربة كثير من هذه الألفاظ والمصطلحات والكلمات المفتاحية التي كانت من صنيع ما يمكن أن نسميه (علم الجمال الاستشراقي) ولغاته الأجنبية المتعددة التي اخترعت تقريباً، أغلب العناوين العامة والخاصة لموضوعات (الفنّ الإسلامي)، بما فيها عنوانه الرئيس: (Islamic Art)؛ على سبيل المثال لا الحصر.

(ب) استعارة كثير من المفاهيم والمعاني والدلالات الخاصة بتفسير الألفاظ والمصطلحات الفلسفية والنقدية المتداولة في (معجم الفنّ الغربي)

---

(٣٨) ينظر على سبيل المثال لا الحصر: كتاب تيتوس بيركهارت Titus Burckhardt الصادر عام ١٩٧٦م، مترجماً من اللغة الفرنسية إلى اللغة الانكليزية بعنوان:
Art Of Islam: Language & Meaning.

(٣٩) داغر، شربل. **الفنّ والشرق: الفنّ الإسلامي**، بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤، ٢ / ٢٥٢ ـ ٢٦٣.

للتعبير عن مسائل (الفنّ الإسلامي) وموضوعاته المختلفة، كما هو الحال في بعض المفاهيم الفنية التي لم تكن الثقافة العربية الإسلامية تعرفها من قبل، منها -على سبيل المثال- مفهوم المدرسة (School) الفلسفي والنقدي الدال على اتجاه فكري معين أو حركة فنية خاصة، فقد استخدم هذا المصطلح بشكل واسع في دراسات الفنّ الإسلامي الحديثة والمعاصرة التي اعتادت الإسهاب في الحديث عن (مدارس الخط العربي) وعن (مدارس التصوير الإسلامي) وعن غيرها من (مدارس الفنّ الإسلامي)[٤٠] بعامة، على الرغم من أن اللغة العربية والثقافة الإسلامية اعتادت على مفهوم آخر لمصطلح (المدرسة) يتمثل في المؤسسة التعليمية.

(ج) تغذية لغة الفنّ الإسلامي الحديثة والمعاصرة ببعض المصطلحات الفنية الغربية التي منها على سبيل المثال: (Technique) الذي ترجم إلى (الإخراج الفني)[٤١] عند دراسة كيفيات رسم الأشكال الزخرفية وغيرها.

(د) اضطراب الترجمة الدلالية لبعض المعاني والمفاهيم المتعلقة ببعض ألفاظ الفنّ الإسلامي ومصطلحاته الأجنبية عند نقلها إلى اللغة العربية كما هو الحال -على سبيل المثال- في نقل مصطلحات مثل: (Decoration)، و(Ornamentation)، و(Illustration)، وغيرها.. نقلاً دلالياً إلى مصطلح عربي واحد اللفظ وربما المعنى أيضاً ألا وهو: (الزخرفة).

(هـ) استعمال الألفاظ والمصطلحات الأجنبية المعروفة في اللغة العربية بـ(المعرَّب) بكثرة مفرطة إلى الحد الذي تبدو فيه لغة الفنّ الإسلامي المعرفية لغة أجنبية عن لغة القرآن والإسلام العربية، فضلاً عن صعوبة معرفتها على الوجه العلمي الدقيق. ومن أبرز الأمثلة على ذلك: بعض مصطلحات (فنّ الزخرفة الإسلامية) المعربة من اللغة التركية: (هاتاي

---

(٤٠) انظر: ديماند. المرجع السابق، ص ٤١ ـ ٧٤، حيث يصنف مدارس الفنّ الإسلامي إلى سبع مدارس فنية.

(٤١) فكري، أحمد. **المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها**، القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٦٥م، ج ١، ص ١٧١.

Hatay) و(رومي Romi). ويظل (المقرنص)[٤٢] هو المصطلح المعرّب الأشهر في لغة الفنّ الإسلامي.

(و) وفي هذا السياق لم يلتفت كثير من المعنيين بالفنّ الإسلامي إلى تأصيل ألفاظه ومصطلحاته من خلال العودة إلى المعجم اللغوي والاصطلاحي العربي، أو من خلال إعادة الاعتبار إلى بعض الألفاظ المفاهيم والمصطلحات الأجنبية ذات الأصل العربي الإسلامي إلى اللغة والمعرفة والثقافة والهوية العربية الإسلامية، كما هو الحال على سبيل المثال في لفظة الـ(Tawrique) التي كانت قد انتقلت من اللغة العربية إلى اللغة الإسبانية، وصارت فيها مصطلحاً فنياً إسبانياً دالاً على "الزخرفة النباتية القائمة بشكل خاص على الوريقات والسعف،"[٤٣] وما ينشأ فنياً عن تحوير أشكالهما، فجرى إعادة هذا المصطلح إلى لغة الفنّ الإسلامي العربية بعنوان (فنّ التوريق).

رابعاً: الصِّناعة الغربية للمصطلح الفني الإسلامي

قبل ولادة مصطلح (الفنّ الإسلامي) وبعده، كانت هناك صناعة لغوية معرفية تشتغل على تسمية كل ما له علاقة بهذا الفنّ من الأعمال والآثار والنظريات والتقنيات والأساليب والأشكال والصور والرموز الفنية، وذلك من خلال اختراع الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم الحديثة الدالة على ذلك كله أو بعضٍ منه في سياق الثقافة الفنية الغربية، التي كانت إحدى نتائج عصر النهضة الأوروبية وسماته الحداثية الأساسية، التي امتدت منذ القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، فقد انطلقت فيه بواكير التسمية المعرفية للفن الإسلامي مع مصطلح (Arabesco) المولود في اللغة الإيطالية في العام

(٤٢) في مشرق العالم الإسلامي، و(المقربص) في مغربه، و(المقرنس) في: مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤، ط ٤، ص ٧٣١.

(٤٣) فكري: المرجع السابق، ١/ ١٧٨. انظر:
عبد العزيز، سالم. **بعض المصطلحات للعمار الأندلسية المغربية**، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، إسبانيا: معهد الدراسات الإسلامية، مج٥، ع ١-٢، ٧٥٩١، ص ٢٤٢: "إن كلمة التوريق هي نفسها كان يتداولها المؤرخون العرب، فالمقري يذكر شخصاً اسمه محمد بن أحمد، كان عالماً بصناعة التوريق، وإن ابن جبير يستعمل هذه اللفظة مع لفظة التشجير مؤدياً المعنى نفسه الذي تقصده الكلمة الفرنسية Arabesque، وهو الزخرفة النباتية... وقد ورثت اللغة القشتالية هذه الكلمة، وما زال الإسبان يطلقونها على الزخارف النباتية ذات الطابع العربي."

١٠١٩هـ/ ١٦١١م؛ إذ تذكر بعض المعاجم اللغوية التاريخية الأجنبية بأن لفظة (Arab: عرب) هي النواة الصرفية والدلالية لهذا المصطلح الفني الجديد الدال من حيث المعنى على التصميم الزخرفي العربي النباتي تحديداً، حتى بعد انتقاله إلى اللغات الأوروبية الأخرى، وبخاصة الفرنسية والإنكليزية والألمانية، التي استقر فيها جميعاً على صيغة (Arabesque).[٤٤]

ويذهب بعض مؤرخي الفنّ الإسلامي كالمؤرخ الألماني المتخصص في تاريخ الفنّ الإسلامي (أرنست كونل Ernest Kuhnel) إلى أن مصطلح (Arabesque) إنما هو من اختراع مؤرخ الفنّ النمساوي الأصل، الذي يعد واحداً من مؤسسي علم تاريخ الفنّ وفلسفته: (آلويس ريكل Alois Riegle: ١٨٥٨ - ١٩٠٥م) في أواخر القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي.[٤٥]

ومهما يكن من أمر ولادة هذا المصطلح واختراعه قبل ظهور مصطلح (الفنّ الإسلامي)؛ فإنه قد يمكن القول إنّ هذا المصطلح كان بمثابة النواة المعرفية والدلالية الأولى للغة هذا الفن، التي صارت تتعاطى معه بكل إيجابية، سواء في دراسات هذا الفنّ الأجنبية (الاستشراقية)، أو في دراساته العربية والإسلامية الحديثة والمعاصرة، التي عملت على نقل هذا المصطلح إلى لغة الفنّ الإسلامي العربية من طريقين: تعريب لفظه الأجنبي تعريباً صرفياً خالصاً إلى (أرابسك)،[٤٦] أو ترجمته بمعنى متفاوت بين الدلالة على عموم الفنّ الإسلامي بلا تحديد ولا تمييز ولا استثناء،[٤٧] والدلالة على الزخارف النباتية حصراً، كما هو في أصله الدلالي الأول.

---

(٤٤) Barnhart, Robert. Dictionary of Etymology, New York: Chambers, 2005, p 47.

(٤٥) انظر: الفاروقي، اسماعيل راجي ولوس، لمياء: **أطلس الحضارة الإسلامية**، ترجمة الدكتور عبد الواحد لؤلؤة، الرياض: مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٨م، ص ٢٦٥.

(٤٦) قدم أحد صناع معاجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية العرب المعاصرين تمهيداً لغوياً غريباً جداً، ولا داعي له إطلاقاً في سياق هذا الموضوع، لشرح مصطلح (أرابسك Arabesque)، إذ يقول: "الأرب (بفتحتين) ـ جمع مآرب ـ المطلب المستهدف أو المنشود، والأربة: الحاجة المشتهاة، مصداقاً لقوله تعالى (غير أولي الإربة)، والإرب (بكسر الهمزة وسكون الراء) ـ جمع مآرب ـ الدهاء والمكر واستخدام الحيلة، والأريب: الحاذق والعاقل "انظر:
- رزق، عاصم محمد: **معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية**، القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠، ص ١٢.

(٤٧) معروف، نزيه طالب (إعداد). **زخارف الحرف اليدوية في العالم الإسلامي: الأرابسك**، إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ١٩٩٧.

وإذ تباين الباحثون العرب والمسلمون في هذه الترجمة الدلالية لمصطلح (Arabesque) إلى اللغة العربية، فقد اختلفوا كذلك في محاولات إيجاد مكافئ لفظي عربي له، فقدم بعض هؤلاء الباحثين مصطلحات رئيسة لترجمته دلالياً؛ منها مثلاً: (التوشيح)،[٤٨] و(الرقش)،[٤٩] و(العربسة)،[٥٠] و(الترقين الزخرفي)،[٥١] و(الزخرفة العربية المورقة)،[٥٢] و(الزخرفة بالفروع النباتية)،[٥٣] و(الزخارف النباتية)،[٥٤] وربما غير ذلك.

أما تلك الألفاظ والمفاهيم والمصطلحات التي نشأت بعد الظهور التاريخي لمصطلح (الفنّ الإسلامي) فهي كثيرة، وهي مهمة من حيث صناعتها الغربية، فضلاً عن كونها قد أصبحت عناصر حيوية للغة هذا الفن. ويمكن أن نعرض في هذا السياق بعض الأمثلة التي منها:

(أ) morisco: الإسبانية الأصل، أو Moresque الفرنسية التي ظهرت منذ العام (١٠١٩هـ/ ١٦١١م) بكونها صفة لكل ما يملك خصائص العمارة والفنّ المغربي Moorish، ثم صارت منذ العام (١١٦٥هـ/ ١٧٥٢م) تقريباً اسماً يعبر تحديداً عن الأساليب الزخرفية والتزيينية الأندلسية والمغربية[٥٥] في مجالات العمارة والصنائع والفنون الإسلامية المختلفة. وتتمثل هذه الأساليب بصورة رئيسة في الأشكال والأنساق والشبكات الزخرفية الهندسية geometrical بخاصة؛ المنفذة في (صنعة الخزف: السيراميك Ceramics) المغربية الخاصة والمعروفة بإسم (الزلّيج zillij).

---

(٤٨) فكري: المرجع سابق، ١/ ١٨٣.

(٤٩) عيسى، جورج. بشر فارس في مصطلحاته الفنية والفلسفية، **التراث العربي** (مجلة اتحاد الكتاب العرب-دمشق)، ع ٨٠، س ٢٠، تموز ٢٠٠٠، ص ١٤٩.

(٥٠) ستيتيه، صلاح. الصورة والإسلام، لندن: **فنون عربية** (مجلة)، العدد السادس، ١٩٨٢، ص ٤٨.

(٥١) عكاشة، ثروت. **القيم الجمالية في العمارة الإسلامية**، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٤، ص ٤٣٣.

(٥٢) الباشا، حسن. **التصوير الإسلامي في العصور الوسطى**، القاهرة: مكتبة النهضة العربية، ١٩٥٨، ص ١٥٥.

(٥٣) بريجز: المرجع السابق، ص ١٥٩.

(٥٤) الألفي، أبو صالح. **الفنّ الإسلامي**، لبنان: دار المعارف، د. ت، ط ٢، ص ١١٢.

(٥٥) المفتي، أحمد. **موسوعة الزخارف التاريخية**، دمشق: دار دمشق، ٢٠٠١، ص ٨. وكذلك:
Encyclopaedia Britannica, London: Encyclopaedia Britannica, Inc., 2012.

(ب) Miniature: وهي لفظة إيطالية الأصل؛ ظهرت لأول مرة عام (٩٩٤هـ/ ١٥٨٦م)، ثم انتقلت إلى الفرنسية، ودخلت اللغة الإنكليزية في حدود عام (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م)، لتعني ومن ثم: الصورة المصغرة والدقيقة، الملونة أو المذهبة أحياناً في المخطوطات.[٥٦]

ويصعب تحديد زمان انتقال هذا المصطلح إلى لغة الفنّ الإسلامي، لكن ما يمكن قوله في هذا الانتقال هو أنَّ هذا المصطلح الأجنبي قد عُرِّب حرفياً إلى (المنياتور)، وترجم دلالياً إلى (المنمنمات). وربما يعد الباحث اللغوي بشر فارس[٥٧] (ت ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م) هو أول من ترجم مصطلح Miniature من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، مخترعاً مصطلح (المنمنمات) بعد استخراجه من فعل (نمنم) الأصيل في اللغة العربية.[٥٨]

(ج) Abstraction: الذي يعود تداوله الأول في اللغات الأوروبية إلى عام (٩٥٥هـ/ ١٥٤٩م) بمعنى لا يمت إلى الفنّ بصلة خاصة ومحددة على النحو الذي ظهر فيه مصطلح Abstractionism منذ العام (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م).[٥٩] ولكن هذا المصطلح استقر منذ العام (١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م) تعبيراً عن اتجاه جديد في الفنّ التشكيلي الغربي، يقوم على خلو الرسم من التفاصيل الواقعية أو المادية للشيء أو الموضوع؛ أي إنه تعبير عن مبادئ وتقنيات الفصل في ما بين الشكل والمضمون، من خلال الاشتغال التقني على الألوان والخطوط والأنساق الهندسية -بصورة أساسية- لصناعة (شكل Form) فني يشتغل -بدوره- بصورة رمزية في التعبير عمّا وراء هذا الشكل من المعاني العميقة والعالية. ويطلق على صناعة هذا الشكل الفني مصطلح (Abstract Art).[٦٠]

---

(٥٦) Dictionary of Etymology, p 664

(٥٧) فارس، بشر. **سر الزخرفة الإسلامية**، القاهرة: المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٣، ص ٤٨.

(٥٨) ابن منظور: المصدر السابق، ٢/ ٣٠٥.

(٥٩) Encyclopaedia Britannica , London: Encyclopaedia Britannica , Inc. , 2012.

(٦٠) ريد، هربرت. **الموجز في تاريخ الفنّ الحديث**، ترجمة لمعان البكري، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٩، ص ١٢٥.

ويعد التجريد، من حيث هو مفهوم فلسفي غربي مقابل للتشخيص في الفن، هو الجوهر المعرفي لتطبيقات النظرية النقدية المعاصرة وإسقاطاتها على طبيعة الفنّ الإسلامي وخصائصه العامة؛ إذ يبدو أن الحديث عن التجريد في الفنّ الإسلامي يعود إلى الثقافة الجمالية الغربية، التي ناقشت منذ القرن التاسع عشر، على الأقل، ما سماه بعض النقاد الغربيين: (نظرية الفنّ التجريدي العربي Arabesque)،[٦١] التي تجلت خلاصتها الإبداعية في مقولة مؤسس الحركة التكعيبية في الفنّ التشكيلي المعاصر؛ الفنان الإسباني بابلو بيكاسو (ت ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م): "إن أقصى نقطة أردت الوصول إليها في فنّ التصوير، وجدت الخط الإسلامي قد سبقني إليها منذ أمدٍ بعيد." وكان هذا الفنان يقصد بهذه النقطة مفهوم (التجريد)[٦٢] وأسلوبه الفني[٦٣] المؤسس لما يعرف بـ (الفنّ التجريدي Abstract Art) الذي يدخل المعجم الثقافي العربي الإسلامي لأول مرة، بقرارٍ علمي رسمي صدر عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م، من مجمع اللغة العربية في القاهرة، ينص على تعريف "الفنّ التجريدي: فن يعتمد في الأداء على أشكال مجردة تنأى عن مشابهة المشخصات والمرئيات في صورتها الطبيعية أو الواقعية."[٦٤]

(٦١) سوريو، إتيان. **الجمالية عبر العصور**، ترجمة: ميشال عاصي، بيروت: منشورات عويدات، ١٩٨٢، ط ٢، ص ١٧٩.

(٦٢) ترجم اللفظ Abstraction إلى اللغة العربية والثقافة الإسلامية في الإطار الدلالي للفعل (جرّد) الذي يعني نزع الشيء واستلاله من مكانه؛ إذ إن (التجريد) بعامة هو الخلاء والتعرية والتشذيب. وكان (التجريد) مصطلحاً عربياً إسلامياً يطلق بخاصة على تعرية الكتاب والمصحف من علامات الضبط اللغوي كالنقط والإعراب والتعجيم وأية زيادات أخرى على النص. ينظر:
- ابن منظور: المصدر السابق، ١/ ٢٣٢.

(٦٣) وغالباً ما يعبر عنه بمصطلح Abstractionism الذي يترجم الى الحركة (التجريدية).

(٦٤) مجمع اللغة العربية. **معجم ألفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون**، مرجع سابق، ص ١٣٤.

خامساً: الأسس المعرفية للمصطلح الفني الإسلامي

ومن أبـرز ما يمكن أن نقرأه في السيرة الجمالية الاستعمالية لأغلب مصطلحات الفنّ الإسلامي هو تحولاتها التاريخية بين الحياة والموت في الثقافة الإسلامية، وبخاصة أن المصطلح هو أشبه بكائن حي، غالباً ما تقوم قيمته المعرفية على حيويته الاستعمالية في المكان وفي الزمان؛ إذ يمكن لذلك تصنيف مصطلحات الفنّ الإسلامي إلى واحدٍ من صنفين: أحدهما يمكن أن نطلق عليه: (المصطلح الحي)، وهو الذي ولد ونشأ وتطور واشتغل ولا يزال يشتغل معرفياً في لغة الفنّ الإسلامي. وثانيهما؛ (المصطلح الميت) الذي ولد واشتغل ومات في حقبة حضارية معينة، ولم يعد له وجود معرفي إلا في الوثائق التاريخية.

وعلى الرغم من أهمية المصطلحين من الناحية المعرفية في تأصيل لغة الفنّ الإسلامي، وبنائها على صعيدي التاريخ والعلم، من جهة أن دراسة سيرة المصطلح وتطوره التاريخي Etymologically تؤدي بلا شك إلى منافع كثيرة ومهمة في بناء هذه اللغة المعرفية الخاصة، فإنه يبدو "المصطلح الحي" أكثر أهمية، وأبرز دوراً، وأقوى تأثيراً في تأسيس علم الفنّ الإسلامي بعامة وفي بناء علم المصطلح الفني الإسلامي بخاصة، وأنه يبنى على الأسس المعرفية الآتية:

(أ) **اللغة**: التي تغطي البنية اللغوية للمصطلح في مستوييها: الصرفي morphological، والمعنوي meaning، وبناء العلاقة المصطلحية بينهما على الترادف.

(ب) **الثقافة** culture: وهو الأساس الذي يعطي المصطلح هويته اللغوية وخصوصيته المعرفية بوصفه مصطلحاً ينتمي إلى ثقافة معينة، كأن تكون إسلامية أو إنسانية أو غير ذلك. وتقوم على هذا الأساس دلالة المصطلح بوصفها معطى ثقافياً أكثر منها معطى لغوياً، إذ تستند ثقافية المصطلح من الناحية الذاتية على خصوصيات الثقافة التي ينتمي إليها المصطلح؛ من دين وعرف وأدب وخبرة وتجربة وغير ذلك. ويستند من الناحية الموضوعية إلى العلاقات الثقافية بين اللغات الإنسانية؛ من التفاعل

والتبادل والتأثر والتأثير وغير ذلك مما تتيحه المثاقفة Acculturation، والترجمة، وغيرهما.

(ج) **المنهج العلمي** Method Scientific: الذي يؤسس لعلمية المصطلح من خلال الرؤية التي تنطلق منها دراسة المصطلح، كأن تكون رؤية تأريخية Diachronic أو تعاصرية Synchronic، ومن خلال المنهج الذي تتبعه هذه الدراسة، كأن يكون لغوياً مجرداً يقوم على الترادف، أو دلالياً، أو تأثيلياً جامعاً للإثنين معاً. ويسترشد في ذلك كله بعلوم الآلة كالمنطق وغيره.

سادساً: تصنيف المصطلح الفني الإسلامي

وربما أدت الطبيعة المعرفية للغة الفنّ الإسلامي إلى أن تكون بعض هذه التحديات اللغوية متأتيةً من داخل المنظومة الثقافية الإسلامية، وهو الأمر الذي قد يجعل التغريب والتعريب بوصفهما من أبرز خصائص المصطلح الفني الإسلامي خياراً إشكالياً، ربما يقوم عند بعض المعنيين بالموضوع على مراعاة "مسألة الوحدة والتعدد التي تتميز بها الفنون الإسلامية، فلا ننسى وحدة المبادئ التي أفرزتها وتعدد الشعوب التي أفرزتها، ومن ثم فإن علينا أن نتحرى مصطلحاتها في اللغات الإسلامية كافة (العربية والتركية والفارسية وغيرها)؛ إذ ليس من المعقول مثلاً أن يضع أحدهم معجماً بالعربية لمصطلحات الفنون الإسلامية، ثم إذا مرَّ به لفظ أو مصطلح تركي أو فارسي أو غير ذلك، اكتفى بالقول بأنه عامي أو دخيل، وغض الطرف عن التفتيش عنه في مظانه."[٦٥]

وربما يفتح هذا الرأي الباب واسعاً على أكثر من إشكالية مولدة على نحو مباشر وغير مباشر من إمكانيات القبول المعرفي بإضافة لغات أجنبية أخرى غير إسلامية، إلى المنظومة اللغوية الناظمة لصناعة المصطلح الفني في الثقافة الإسلامية، على الرغم من إدراكنا لحقيقة هذه الاشكاليات كلها، بوصفها تحديات لغوية وثقافية فاعلة في (تغريب) المصطلح الفني الإسلامي، سواء من خلال نزع الشكل اللغوي العربي عنه، أو من خلال إفراغه من محتواه الثقافي والحضاري العربي.

(٦٥) المرجع نفسه، ص٣.

ينطلق تغريب المصطلح الفني الإسلامي -في الأساس- من تلك (الإشكالية الاستشراقية) في الرؤية إلى عدم كفاءة اللغة العربية في أن تكون لغة حضارية، لأن "عرب الجزيرة لم يكونوا بحكم بيئتهم مؤهلين للاشتغال بالحرف والصناعات ولا بالإنشاء والتعمير.." فالكعبة المشرفة، على سبيل المثال لا الحصر، كانت "عملاً بسيطاً ساذجاً، وأنه استمر على بساطته طوال القرون على الرغم من أن الحضارات القديمة من حول الجزيرة العربية بلغت شأواً بعيداً في مجالات الإنشاء والتعمير، كما يشاهد في مصر والعراق والشام."(٦٦)

ومن الأهمية هنا أن نشير إلى أن نظرية الفراغ العربي في العمارة والفنون والصنائع الحضارية الإسلامية كانت قد تساوقت، قديماً وحديثاً، مع نظرية الوافد أو الدخيل اللغوي (المعرب) إلى لغة الفنّ الإسلامي التي يحتوي معجمها المتخصص بالعمارة الإسلامية، على سبيل المثال، عدداً كبيراً من الألفاظ الفارسية والتركية وغيرهما من لغات الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية، وأن مصطلحات أساسية في لغة الفنّ الإسلامي مثقلة بكل أشكال هذا الوافد اللغوي اللفظية والدلالية.

وإذ يتضح من هنا، تنوع الأصول اللغوية والمصادر الثقافية التي تقوم عليها لغة الفنّ الإسلامي، فإن الاعتبارات الواجبة لضبط مفهوم المصطلح الفني الإسلامي ورسم حدوده المعرفية تقوم على الوحدة اللغوية والأصالة المعرفية في الانتماء الخاص والمباشر إلى علم الفنّ الإسلامي؛ إذ ينبغي أن يتفق أهل الاختصاص وأهل اللغة على أن (**المصطلح الأصيل**) في لغة الفنّ الإسلامي هو في الأصل كلمة عربية المبنى والمعنى، يمكن أن تكون هي البؤرة الدلالية في أي موضوع من موضوعات هذا الفن.

ومن هنا يجب أن تفهم مسألة (الوحدة والتنوع) المتعلقة بلغة الفنّ الإسلامي على أساس ما يمكن أن نسميه: وحدة الأصل اللغوي، وتنوع الفروع اللغوية المتصلة بهذا الأصل، والمتعلقة أو المرتبطة به، والدائرة في فلكه اللغوي والمعرفي. وربما يفتح هذا الفهم أمام الباحثين في لغة الفنّ الإسلامي

(٦٦) المرجع نفسه، ص ١٢.

إمكانية تصنيف ألفاظها ومصطلحاتها ومفاهيمها المتداولة بعامة بين ما يمكن أن نسميه:

(أ) **المصطلح المعرّب**: من لغة غير اللغة العربية، وإن كانت إسلامية الثقافة، إلى لغة الفنّ الإسلامي العربية. وهناك كثير من الأمثلة على هذا المصطلح، الذي أصبحت معاجم العمارة والفنون والصنائع تعج به، إلى درجة يبدو فيها وكأنه المصطلح الرئيس والأساس، بل والأصيل أحياناً في لغة الفنّ الإسلامي. ومن أبرز المصطلحات الفنية الإسلامية على سبيل المثال: (الفسيفساء)، و(الطغراء)، و(الخانقاه).

(ب) **المصطلح المغرّب**: في صناعته اللفظية الأجنبية القائمة في المبنى والمعنى على صورة لفظ عربي اللغة والثقافة والصِّناعة أصلاً. ومن أبرز المصطلحات الأجنبية التي صنعها المستشرقون من ألفاظ عربية الأصل للدلالة على الفنّ الإسلامي والتعبير العلمي عنه على سبيل المثال: (الأرابسك)، و(التوريق)، و(المورسك).

(ج) **المصطلح المترجم**: عبر نقل معناه أو مفهومه من الثقافة الفنية الغربية إلى لغة الفنّ الإسلامي، ليكون واحداً من مفاهيمها المعرفية الخاصة. ومن أبرز الأمثلة في هذا السياق مصطلح (المدرسة School) الذي كان قد نشأ أصلاً في الثقافة الغربية وتطور فيها خلال القرن الثامن عشر؛ ليطلق على المجموعات والاتجاهات والأساليب الفنية، ثم جاء الباحث والأكاديمي الفرنسي المتخصص بدراسة الفنّ الإسلامي؛ كلود هيوار Cl. Huart؛ ليستخدمه في كتابه عن أعمال الخط والرسم المصغر في الفنّ الإسلامي الشرقي في تصنيف الأساليب والاتجاهات الفنية لهذه الأعمال إلى e'coles: مدارس فنية،[٦٧] وهو ما كان البذرة اللغوية والمعرفية الأساس لنشوء ما صار يعرف عند المؤرخين بمدارس الفنّ الإسلامي.

---

(٦٧) انظر:

Les Calligraphes et les Miniaturistes De L'ORIENT MUSULMAN, Paris, 1908.Hurar

سابعاً: الحقول المعرفية لمعجمة المصطلح الفني الإسلامي

صار (المصطلح الفني) في الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة مفهوماً مستقلاً ذا وجهة دلالية واحدة ومحددة صوب المعاني المتعلقة بخاصة، بالفنّ بوصفه واحداً من أركان المعرفة الإنسانية الأساسية الثلاثة إلى جانب العلم والأدب.[٦٨]

وصار (المصطلح الفني الإسلامي) مجالاً معرفياً واسعاً وشاملاً لمعانٍ ومفاهيم متعددة ومتنوعة، تتعلق بالفنّ الإسلامي بوصفه ركناً من أركان المعرفة الإسلامية يتعلق بفقه الإبداع الحضاريّ والجمالي بعامة، ويقوم على فنون العمارة وتصميمها الداخلي والخط والزخرفة والتذهيب والتصوير وغيرها من الفنون والصنائع الإسلامية المعروفة بخاصة.

ويمثل هذان المصطلحان الجوهر المعرفي للغة الفنّ الإسلامي وصيرورتها الحيوية القائمة على المرتكزات الآتية:

- العلاقات الثقافية للغة الفنّ الإسلامي مع كلٍ من اللغات والحضارات الأخرى.
- التصنيف المعرفي لأجناس هذا الفنّ وحقوله المعرفية الفرعية كالعمارة والتصوير والخط والتذهيب وغيرها.
- الخصوصية العلمية الداخلية لكل من هذه الأجناس والفروع الفنية.
- التأطير النقدي الذي يعمل على تقويم العمل الفني الإسلامي وتذوقه والحكم عليه، في ضوء مبادئ وقيم ومعايير جمالية إسلامية، قد تتمثل من الناحية المعرفية والمفهومية في ألفاظ نقدية خاصة ومعينة.

ومن هنا، قد يصبح من الضرورة المعرفية والمنهجية تصنيف كل هذه المعاني والدلالات والمفاهيم والألفاظ الثقافية والمعرفية والعلمية والنقدية، التي قد يتضمنها (المصطلح الفني الإسلامي) إلى الحقول الدلالية الآتية:

(أ) **المصطلح الثقافي**: لفظ تعريفي يأتي لبيان هوية (الفنّ الإسلامي) الإسلامية في سياق دراسات المثاقفة الإنسانية القائمة في مجال المعرفة الفنية على

(٦٨) حنش: مرجع سابق، ص ٢٥ - ٢٦.

وصف بعض الفنون وصفاً عاماً، مفتوح الدلالة على مجالات الثقافة الإنسانية العامة والمشتركة كالدين والفلسفة، وغيرهما من الخصوصيات الاعتقادية والمنهجية التفكرية والتقنيات الإبداعية، والأساليب الفنية والخصائص الجمالية.

ويهدف هذا المصطلح الثقافي -في الغالب- إلى وصف هذا الفنّ بعامة أكثر من تعريفه؛ أي يمكن له وصف الفنّ الإسلامي في سياق الثقافة الإنسانية، على سبيل المثال بأنه: فن تقليدي Traditional.

(ب) **المصطلح المعرفي**: تعريف عام يهدف إلى تحديد المعاني والدلالات والمفاهيم المتعلقة بتحديد الإطار العام للعمارة والفنون والصنائع الإسلامية، بوصف كل منها مجالاً معرفياً متميزاً بخصوصيته المفهومية والعلمية والمنهجية، وبانتمائه المطلق والمباشر إلى ميدان معرفي بعينه، دون أية مشاركة أو تداخل مع غيره، في سياق التصنيف المعرفي للفن الإسلامي بعامة، وأجناسه أو حقوله المعرفية بخاصة.

ويعمل هذا المصطلح على تعريف مركباتٍ مثل (الفنّ الإسلامي) و(العمارة الإسلامية) و(فن الخط العربي) و(فنّ الزخرفة الإسلامية) وأشباههما الدلالية في سياق التصنيف المعرفي الخاص بلغة الفنّ الإسلامي.

(ج) **المصطلح العلمي**: لفظ تعريفي أكثر تخصصاً من المصطلح المعرفي، يدخل في تشكيل البنية العلمية الذاتية أو الداخلية لمفهوم المصطلح المعرفي. ويمكن أن نمثل لهذا المصطلح في سياق (العمارة الإسلامية) مثلاً بألفاظ وعبارات مثل: المسجد، المئذنة، الميضأة، المحراب، وغير ذلك من الألفاظ والعبارات الدالة في الأصل على أي عنصر من عناصر العمارة الإسلامية.

(د) **المصطلح النقدي**: اللفظ الدال على الوصف والتذوق والحكم والتصنيف المتعلق بالأشكال والصور والتقنيات والأساليب والنظريات والخصائص الجمالية المكونة لطبيعة الفنّ الإسلامي بعامة، والمعبرة بخاصة عمّا يمكن أن نسميه: النظرية الإسلامية للنقد الفني. ومن أبرز المصطلحات التي يمكن تصنيفها في هذا المجال: التجريد، الأسلوب، الإحسان، التفاضل.

الخاتمة:

لغة الفنّ الإسلامي هي اللغة المعرفية الخاصة بالألفاظ والمصطلحات والمفاهيم، التي تشكل البؤرة الدلالية لموضوعات علم الفنّ الإسلامي، والكلمات المفتاحية للبحث العلمي فيه، وهي من ثم ذات أهمية كبيرة في بيان حقيقة هذا العلم المعرفية، وفي تقرير هويته الثقافية.

وتبدو هذه اللغة المعرفية إشكالية مركبة من جملة إشكاليات اللغة والفنّ وتحدياتهما الثقافية الغربية، التي فرضتها الدراسات الاستشراقية على اللغة العربية والثقافة الإسلامية، عبر تغريب الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم المتعلقة بالفنّ الإسلامي. وقد تصدى البحث اللغوي العربي الحديث والمعاصر لإشكاليات هذه اللغة وتحدياتها، فقام بعمليات الترجمة والتكييف والاستيعاب والوضع والتعريب لأغلب تلك الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم، وتوجيهها معرفياً في ضوء اللغة العربية بوصفها لغة الفنّ الإسلامي الأم، إلى بناء (المصطلح الفني الإسلامي).

ومن هنا، نأخذ أولى نتائج هذا البحث وأهمها وأبرزها، عبر إمكانية تأسيس علم المصطلح الخاص بالفنّ الإسلامي، على أسس معرفية من اللغة والثقافة والمنهج العلمي، الذي يساعد في بيان طبيعة هذا العلم وحدوده وحقوله المعرفية الواضحة. ولا شك في أن ذلك يقتضي تعميق البحث العلمي وتوسيعه في لغة الفنّ الإسلامي، التي لا تزال، إلى حدٍ ما، أرضاً علمية بكراً، وتأليف المعاجم المتخصصة بالحقول المعرفية المختلفة لعلم المصطلح الفني الإسلامي، والتوطين الأكاديمي لهذا العلم في الدراسات الجامعية العليا: اللغوية والفلسفية والفنية وغيرها مما له علاقة بالثقافة الإسلامية.